والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن أمام ما عرضناه من مفاوضات بين صلاح الدين وباليان، وهي مفاوضات انتهت بخروج الصليبيين جميعاً، مقاتلين وشيوخاً ونساء وأطفالاً، من المدينة المقدسة، سالمين، تماماً بعكس ما جرى للمسلمين، يوم أن احتل الصليبيون المدينة عام 1099م. ألم يكن باستطاعة صلاح الدين أن يقتحم المدينة عنوة، وبغتة، وبدون إراقة دماء المقاتلين المسلمين، بواسطة من كان «بداخل المدينة» من أصدقائه، وهم «عدد كبير» من «ذوي النفوذ والسلطان»، خصوصاً وأن حلفاء من المسيحيين الوطنيين «الأرثوذكس» المعادين «للاتين» تماماً، كانوا قد وعدوه بفتح أبواب المدينة له ساعة يشاء؟ إن المؤرخ «رنسيمان» لا يشك في ذلك[75]، وقد عُرف صلاح الدين، في حروبه كلها، وبشهادة الصليبيين أنفسهم، والمؤرخين الفرنج بالذات، أنه كان إنساني النزعة بقدر ما كان صلب العقيدة جازم الإرادة قوي الشكيمة واثقاً بالنصر في هذه الحروب، وهو، في رأي رنسيمان وبشهادته، قد أدرك أن سلطته على القدس «أضحت وطيدة» وأن باستطاعته «أن يفتحها متى يشاء» ولكنه «كان مستعداً لأن يكون سخياً، فأحب أن لا تتعرض بيت المقدس إلا لأقل ما يصحّ أن تتعرض له من الأضرار»[76]. وبالإضافة إلى أنه كان يرغب أن لا يعرّض الأماكن المقدسة الإسلامية في المدينة والمسلمين الأسرى الذين هم بأيدي الصليبيين فيها، لأي ضرر، فإنه كان يرفض أن يدفع الشيوخ والنساء والأطفال الصليبيون المحاصَرون في المدينة المقدسة، ثمن رعونة قادتهم، السالفين، وتعصبهم ووحشيتهم تجاه مسلمي هذه المدينة يوم احتلالهم لها، وربما كان يأنف، كذلك، أن يورط المسيحيين الوطنيين المتحالفين معه والمقيمين في المدينة، بعمل خفي يسيء إلى سمعتهم بين أبناء ملتهم، وهو ما لا يرتضيه ولا شك.

ومهما يكن من أمر، فقد تم الاتفاق بين صلاح الدين وباليان على تسليم المدينة وفقاً للشروط التي ذكرنا، ودخلها صلاح الدين «يوم الجمعة في 27 رجب 583هـ = 2 ت 1/ اكتوبر 1187م»، وذلك بعد أن أعطى باليان الأوامر لحاميتها بإلقاء السلاح والاستسلام لجند المسلمين، «وكان يوماً مشهوداً، ورفعت الأعلام

(75) رنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 750 ـ 751.
(76) م. ن. ص 750 ـ 752.